الأمة من الداخل

عندما نتكلم عن "أمتي في العالم " ونقصد بها الأمة الإسلامية، إنما نشير إلىٰ الوجود وإلىٰ الانتماء. وهذا الأمر لا يقتضي ولا يفيد بأي من وجوه الدلالات، استبعاد وجود آخر ولا انتماء آخر. والقول بوجود الجماعة الإسلامية علىٰ أي من المستويات الإقليمية أو العالمية، لا يستبعد القول بوجود الجماعات الأخرىٰ، في ذات المجال الإقليمي أو العالمي. كما أن وصفًا معينًا لا يستبعد بالضرورة وصفًا آخر، ما دام لا يقوم تضاد ولا تناقض بين الوصفين.

والحديث عن الجماعة أو الجماعات البشرية، إنما هو حديث عن تصنيف، والتصنيف هو فرز واقعي أو ذهني وفقًا لمعيار أو معايير معينة. وكلما تعددت معايير التصنيف تعددت وجوه الفرز الواقعي أو الإدراكي. ونحن عندما نحلل مواد طبيعية إنما نضع معايير لتصنيفها، من حيث الجمادية، ومن حيث الحرارة، ومن حيث القابلية للمقاومة، ومن حيث اللون والرائحة ..إلخ. ومع إعمال كل معيار تتشكل التصنيفات علىٰ وجه من الوجوه تآلفا وافتراقًا.

لذلك ورد في مقدمة العدد الماضي، (العدد الأول من الحولية أمتي في العالم)، أن الحولية تقيم الأمة الإسلامية باعتبارها "وحدة التحليل"، إنما كانت تقصد الإشارة إلىٰ هذا المعنىٰ، لأن من أدوات التحليل تصنيف الظواهر وعرضها علىٰ المعايير المتعددة

لإدراك خصائصها. فالأمر ليس أمر استبعاد ولا استبدال، ولكنه أمر تعدد لمعايير التصنيف، لإدارك الوجوه المتنوعة ولتبين الخصائص المتعددة للجماعة، ثم لإعمال هذه الخصائص. وليس من العملية في شئ القول بأن إظهار وصف ما يفيد طمس أوصاف أخرىٰ، مادام لم يقم تناقض أو تضاد بينهما .

وعلىٰ سبيل المثال، فإن المصريين، هؤلاء الجماعة البشرية، التي تقطن في الركن الشرقي من قارة إفريقيا، هم مصريون من حيث الإقليم، وعرب من حيث اللغة، ومسلمون من حيث الدين، وتبين كل ذلك يرد بتعدد معايير التصنيف، وهذا التعدد يفيد في إدراك الخصائص وتداخلها وتراكبها، فليس كل معيار منفصلا عن الآخر، ولا كل وصف منبتا عن غيره، ولا كل دائرة انتماء إلا وهي متداخلة في الدوائر الأخرىٰ. والإنجليزي يقبل إنجليزيته وأروبيته وكونه أنجلو سكسونيا أو أطلنطيا.

والغريب أن من هؤلاء الذين يتقبلون اجتماع الأوصاف وتعددها وأن يكون المصري عربيـًا وإفريقيا دون تناقض، إنما يهجرون منطقهم المجّمع هذا عندما يرد الحديث عن الدائرة الإسلامية، فينكرون وجودها أصلاً، أو يثيرون التناقض بينها وبين غيرها.

ونحن نذكر مثلاً، أنه عندما بدأت مصر بعد الحرب العالمية الثانية تتطلع إلىٰ القيام بدور سياسي يتناسب مع وزنها وموقعها، بدأت تستلهم أوصافها الذاتية وانتماءاتها المتداخلة، فكتبت افتتاحية جريدة الأهرام أكثر من افتتاحية في فبراير 1948 تتناول هذا الأمر، بحسبان أن مصر عربية، وإفريقية، وإسلامية. وعندما طلع جمال عبد الناصر

بكتاب فلسفة الثورة، والذي يبين رؤيته لدور مصر، أثبت هذه الدوائر الثلاث: الدائرة العربية، والدائرة الإفريقية، والدائرة الإسلامية.

وهذه الدوائر هي ممكنات ومجالات أعمال ونشاط، سواء من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، وإن ترجيح وجه أعمال علىٰ وجه آخر، إنما يرد لا تفضيلاً لهذا الوجه علىٰ غيره من حيث الاختيار المطلق، فنحن لسنا أمام سلع معروضة في واجهات المحال، إنما هو يرد وفقـًا للممكنات المتاحة لهذه الأعمال في كل ظرف، ووفقـًا لدواعي الضرورة الملجئة للتغليب المرحلي لوجه معين، أو للاضطرار للانصراف المرحلي عن وجه معين. وكل ذلك ممكن الورود، تستدعيه ظروف تاريخية وتذهب به ظروف أخرىٰ، وكل ذلك مفهوم، ولكن ما لا يكاد يفهم أن نصر علىٰ عدم تبين الممكنات، أو أن نغض الطرف عن طمسها، فنحن إن فعلنا ذلك نكون بإرداتنا كمن يبتر من جسمه ساقـًا أو ذراعـًا أو يسمل عينـًا.

في النصف الثاني من القرن العشرين، قد نجد أن الدائرة العربية كانت أكثر ازدهاراً، وأن الدائرة الإفريقية كانت التالية لها، من دون الدائرة الإسلامية، وهذا أمر ينبغي بحث أسبابه المرحلية، لا علىٰ طريقة الإغفال والإسقاط ولكن بطريق تبين عوامل التفاعل وأسباب النشاط والخمول. ونحن نذكر هنا كلمة رفيق العظم: "كل مجتمع إنساني مهدد في كيانه من المجتمع الآخر، ما لم يكن ذا رابطة تجعله متكافئا معه في القوة، تراعىٰ فيها النسبة في القوة بين الرابطتين، فكلما اتخذ المجتمع رابطة أوسع تحتم علىٰ الآخر أن يتخذ ما يقابلها..".

والحاصل أن الرابطة العربية جاء التركيز عليها متناسباً مع الخطر الصهيوني وظهور دولة إسرائيل. فكان الجامع العربي هو ما يمكن أن يحيط بهذا الخطر بحسبانه الجامع لدول المواجهة. ثم جاءت حركات التحرر الإفريقي مع أوائل الستينيات لتقيم تجمعاً مشتركاً ضد خصم مشترك على المستوى العالمي. وكل ذلك في الوقت الذي أدى فيه الانقسام العالمي الثنائي بين ما عرف بالغرب (حلف الأطلنطي والكتلة الشرقية (الاتحاد السوفيتي ومن والاه)، جاء ذلك قاسماً للمسلمين، لأن الخطر التاريخي والواقعي على الدول الإسلامية في وسط آسيا وغربها كان يأتي من الدولة الروسية منذ القرن الثامن عشر، وقد اقتنص ما اقتنص من أراضي المسلمين في وسط آسيا، وبقى مهدداً لكل من إيران وتركيا، مما أوجب على هذه الدول والشعوب أن تستعين بالغرب على هذا الخطر، والعكس كان الخطر على الدول والشعوب العربية متحققاً من جانب الغرب واستعماره، مما أوجب على حركات التحرر فيها أن تستعين بالاتحاد السوفيتي ومن والاه على الغرب. فكل ذلك فصم العروة الإسلامية في هذه الحقبة.

ولكن هذه الحقبة قد ولت. ونحن اليوم بعد انتهاء الحرب الباردة من أوائل التسعينيات، صرنا نتلمس طريقنا في ظروف عالمية جديدة، كما كنا نتلمسها في نهايات الأربعينيات بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وإن أي نظر إلى السياسات الجارية في الفترة الأخيرة، تبين أننا ندور في إطار الجماعة العربية، ونستجيب إلى المشاركة مع الدول الخمس عشرة- وهي نخب من بلدان العالم الثالث- ونستجيب

للمشاركة مع الدول الثمانية- وهي دول إسلامية من إفريقيا وآسيا- ونتجه إلىٰ الشرق الأقصىٰ والصين نلتمس توازنا دوليا جديداً، ونتجه إلىٰ أوربا أيضـًا- فرنسا بخاصة- نتلمس إمكانات التوازن كذلك.

ومن هنا نجد أن إنعاش الإدارك بالوجود الإسلامي الجماعي، هو أمر يفيد نفعـًا محضـًا، هو ربح بغير خسارة، وذلك إذا كنا نزن الأمور بالكسب والخسارة، وهو من وجهة أخرىٰ إنعاش للذات الحضارية وإدراك للمميز الثقافي وإثراء له بالتنوع.

ونحن عندما نتجه إلىٰ الجماعة الإسلامية علىٰ المستوىٰ العالمي، إنما يتعين علينا أن نبحث في العلاقات الداخلية بين وحدات هذه الجماعة، والعلاقات المتبادلة، والمشكلات القائمة، سعيـًا لإدراك المشترك العام، والوصول بالاستقراء إلىٰ ما يعتبر وجوه صالح عام يجمعها ويشكل مع الوقت معياراً لفض الخلافات، ومجالاً للتقارب.

والحمد لله

طارق البشرى

* * *

ob eikan.com